نجيب محفوظ

مقدمة

بقلم: محمد سلماوي

حين شرعت في إعداد مجموعة مختارة من القصص لكاتبنا الكبير نجيب محفوظ تصورت أنني ـ لكي أقدم جديد للقارئ ـ سأنتقي من بين أكثر من مائتي قصة قصيرة كتبها الأستاذ نجيب ما يوضح تطوره ككاتب منذ صدور مجموعته الأولي «همس الجنون» عام 1938 وحتي المجموعة الأخيرة «القرار الأخير» التي صدرت هذا العام وكانت آخر ما كتب قبل أن يصاب في ذراعه اليمني في حادث الاعتداء الغاشم الذي تعرض له في نوفمبر 1994. بذا الهدف عدت إلي مجموعات القصص الخمسة عشر التي أصدرها الأستاذ وهي:«همس الجنون» 1938 ـ «دنيا الله» 1962 ـ «بيت سيئ السمعة» 1965 ـ «خمارة القفط الأسود» 1969 ـ «تحت المظلة» 1969ـ «حكاية بلا بداية ولا نهاية» 1971 ـ «شهر العسل» 1971 ـ «الشيطان يعظ» 1978 ـ «الحب فوق هضبة الهرم» 1979 ـ «رأيت فيما يري النائم» 1982 ـ «الجريمة» 1982 ـ «التنظيم السري» 1984 ـ «صباح الورد» 1987 ـ «الفجر الكاذب» 1989 ـ «القرار الأخير» 1996.وانفتح أمامي عالم نجيب محفوظ القصصي الثري والذي هو كالكنز كلما عدت إليه متصورا أنك عرفته من قراءة سابقة وجدت فيه الجديد من معان وأعماق وجوانب فنية لا تسلم نفسها للقارئ من أول قراءة وإنما هي تعطي من القيمة الفنية بعدد مرات قرائتها.ووجدت نفسي في حيرة!! فأين هو هذا التطور الفني الذي تصورته ممتداً من أعمال نجيب محفوظ الأولي وحتي الآن؟! إن أعمال المجموعة الأولي «همس الجنون» لا تقل براعة عن الأعمال التي تلتها بعدة عقود من الزمان ولا هي أقل نضجاً منها، صحيح أن قصص نجيب محفوظ قد اختلفت ما بين مرحلة وأخري من حياته الأدبية فها هو هنا يهتم بالتصوير الواقعي

للحارة المصرية في حي الجمالية أما هناك فتستهويه الموضوعات الفلسفية التي تبحث كنه الحياة وكينونتها، ثم هو هنا يصور حياة الموظفين الكادحين وآمالهم التي طالما تحطمت علي صخرة الواقع الرتيب الذي لا خروج من دائرته المفرغة وهناك يصور عالم الجريمة والتمرد علي الواقع أو عالم الهذيان والهروب من هذا الواقع إلي عوالم خيالية أخري، ولكن أي مدعي هذا الذي يمكن أن يقول إن ذلك يمثل تطوراً وارتقاء في الفن الروائي لنجيب محفوظ؟!إن العبقرية لا تخلق بالتدريج علي مر السنين وإنما هي تولد في المنشأ، أو لا توجد قط.لقد استبعدت فكرتي الأولية التي أردت أن أبني عليها اختياري لقصص هذه المجموعة واستبدلتها بفكرة أخري لا تعتمد علي تطور نجيب محفوظ وإنما علي تطور المجتمع المصري خلال فترة تزيد علي نصف قرن منذ صدور المجموعة القصصية الأولي لأديبنا الكبير وحتي الآن.وهكذا تجد ـ صديقي القارئ ـ مجتمع ما قبل الثورة مثلا في قصتي «الزيف» و«مندوب فوق العادة، حيث تصور الأولي حياة الترف والاستهتار في مجتمع الباشوات والبكوات الذي يعتمد علي الزيف فلا يلقي في النهاية إلا زيفا مثله، وحيث يقول الكاتب في القصة الثانية بطريقة فنية ساخرة إن من يتصدي لتغيير البيروقراطية والروتين الحكومي لابد أن يكون مجنونا. كما تجد أنه في أعقاب حرب 1967 التي انكسر تحت وطأتها بعض الكتاب والفنانين بدأت فكرة العبث المتسلط علي حياتنا تشاغل كاتبنا فصورها في الكثير من كتابات هذه المرحلة وخاصة في مسرحياته الخمس التجريبية العظيمة ذات الفصل الواحد، لكنه صور في نفس الوقت النزعة الهروبية التي سيطرت علي بعض قطاعات المجتمع كما يظهر في قصة «الظلام» والتي تبدو وكأنها سيناريو مصغر لروايته العظيمة «ثرثرة فوق النيل». وما بين حرب الاستنزاف ووفاة جمال عبد الناصر عام 1970 وقيام حرب أكتوبر المجيدة عام 1973 شهدت مصر مرحلة اللاسلم واللاحرب فلم يفت كاتبنا الكبير تسجيلها كما في قصة «أهلا»، وفي أكتوبر 1973 تتحول الهزيمة إلي انتصار لكن اللصوص ينقضون علي المجتمع الانفتاحي الجديد كما في قصة

«أهل القمة» ويبقي الشباب ضائعاً ما بين الحلم القديم الذي اغتيل في 1967 والوهم الجديد الذي يزيدهم احباطاً، وقد صور ذلك الأستاذ نجيب محفوظ في رائعته «الحب فوق هضبة الهرم» والتي أثبت فيها أنه وسط فيض الكتاب الشبان كان ـ وهو يكتبها وقد إقترب من الثمانين ـ أقدرهم وأصدقهم في التبعير عن مأساة الشباب في وقتنا الحالي، كذلك صور كاتبنا الكبير مختلف الاتجاهات السياسية المسيطرة علي مجتمع ما بعد الانفتاح الحالي في قصته «المسخ والوحش» ثم شخص بعد ذلك ببصره إلي عالم الميتافيزيقا وما وراء الطبيعة في قصته الأخيرة «السهم» التي تعتبر من آخر ما خطت يده من قصص، وهذه هي المرة الأولي التي تظهر فيها هذه الأقصوصة الصغيرة المشعة بالمعاني والإيحاءات ضمن مجموعة قصصية.وتبقي فترة المد الثوري التي شهدت قيام ثورة يوليو والإصلاح الزراعي وتأميم القناة والوحدة مع سوريا بعيدة عن العالم القصصي لكاتبنا الكبير فأذهب إليه مستفسراً فيقول بابتسامة صافية: «إن الكاتب لا تحركه إلا سلبيات الحياة ومآسيها أما الإنجازات الكبري فهي تجعله ينام هنيئاً ولا يكتب»، ثم يضيف: «لقد انفعلت لثورة يوليو انفعالاً كبيراً حتي أنني توقفت تماماً عن الكتابة من عام 1952 وحتي 1957 وبذلك يمكنك القول بأنني عبرت عن ثورة يوليو بالصمت لأن إنجازاتها كانت مدوية لا تحتاج إلي جانبها أصواتاً أخري»، لكنك تجد ـ صديقي القارئ ـ بعد ذلك بحوالي ثلاثين عاماً حين كان قد تم الإجهاز تماماً علي الثورة أن نجيب محفوظ قد رثا الثورة وإنجازاتها كما لم يفعل أحد في روايته الميدة «يوم مقتل الزعيم».وخلال رحلته الطويلة مع المتغيرات التي شهدها تاريخنا منذ بداية هذا القرن عبر نجيب محفوظ أيضا عن الثوابت في هذا المجتمع والتي لا تتغير ولا تتبدل ما بين عصر وآخر، مثل فكرة الوحدة الوطنية التي صورها ببساطة رمزية في قصة «جنة الأطفال» كما صور بعض النماذج البسيطة في حياتنا والتي توجد في كل عصر وزمان كما يتضح في قصة «حادثة» وبعض المواقف الإنسانية الثابتة كما يحدث في قصة «مطاردة» .فهل عمد نجيب

محفوظ إلي التعبير عن الحياة المصرية قاصداً؟ لو أنه فعل ذلك لجاء إنتاجه الأدبي مفتعلاً، وقد قال لي في هذا الصدد: «إننا لم نقصد أبداً التعبير عن التمع كهدف في حد ذاته.. لقد كنت أتأثر بأمور فردية مما يتأثر به كل إنسان أو بأمور عامة سياسية فأكتب عنها غير قاصد إلا الامتاع».ولقد حقق نجيب محفوظ هدفه النبيل والسامي فأمتع أجيالاً متعاقبة من القراء بروائعه التي وقفت أمامها أكبر الجوائز الأدبية في العالم مشدوهة لكنه إلي جانب ذلك ـ شأنه شأن «بلزاك» في فرنسا أو «ديكنز» في انجلترا ـ كان ديواناً خالداً للتاريخ الحي لهذه الأمة في الجزء الأكبر من القرن العشرين، وهو يقول في ذلك: « إن الكاتب يدخل تلقائيا كأحد أهم عوامل تطوير التمع، بما يقدمه من تصوير لهذا التمع، لكنه يدخل المعركة دون أن يدري.. دون أن يعي يجد نفسه في الميدان».لقد أصبحت شخصيات نجيب محفوظ هي النموذج لمختلف الأنماط الحية في هذا التمع وهذا هو شأن الأدب العظيم الذي يعود إليه العلماء للتدليل علي نظرياتم، فكما عاد «فرويد» إلي التراجيديا الإغريقية القديمة ليدلل با علي الطبيعة البشرية ويسمي با أسماء بعض الحالات النفسية الخاصة فيقول عقدة «أوديب» أو عقدة «إلكترا» فإن علماء النفس والاجتماع عندنا يعودون إلي شخصية «سي السيد» للتدليل علي نموذج اجتماعي ساد في مرحلة ما من تطور هذا التمع.لقد جمع أديب مصر العظيم نجيب محفوظ في أعماله الروائية تاريخ هذه الأمة في فترة من أهم فترات تحولها فأصبح رمزاً من رموزها التي لا يمكن ذكر اسمها دون ذكر اسمه وتلك هي أسمي مرتبة يمكن أن يصل إليها أي كاتب في أي زمان أو مكان.

محمد سلماوي